

سلسلة ابحاث في العقيدة

{٧}

اعلى مراتب العبودية فى التوكل والصبر والرضا

التوكل- الصبر - الرضا

بقلم الباحث/ محمد حمدى سيد صالح

(أبو عُمير محمد الحلوانى)

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستهديه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهد الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له واشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمد عبده ورسوله اللهم صلي وسلم وبارك علي عبدك ونبيك محمد وعلي إله وصحبه ومن صار علي نهجه إلي يوم الدين أما بعد عنوان البحث

اعلى مراتب العبودية فى التوكل والصبر والرضا

عناصر البحث

- ✓ من عبوديات القلب وأعماله الواجبة بإجماع (الصبر)
- ✓ أساليب الدعوة في القران إلي الصبر
- ✓ الرد علي الهروى في كلامه عن الصبر
- ✓ تعقيب بن القيم علي كلام الهروي
- ✓ التوكل من أعمال القلوب الواجبة علي المقتصدين والسابقين
- ✓ حقيقة التوكل علي الله ودرجاته وأركانه التي لا يتم إلا بها
- ✓ الرضا من عبوديات القلب المترددة بين الواجب والمستحب
- ✓ الفرق بين الرضا بالله والرضا عن الله والرضا بقضاء الله

من عبوديات القلب وأعماله الواجبة بإجماع (الصبر)

الصبر من عبوديات القلب وهو في اللغة بمعنى : الحبس والكف ومنه قول الله تعالى

﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا (٢٨) ﴾[١]

أي احبس نفسك معهم والصبر من أعمال القلوب الواجبة يعني الصبر لابد للشخص أن يصبر علي أقدار الحق

وهذا صبر علي توحيد الربوبية صبر علي توحيد العبادة لله وهذا الصبر علي ما ابتلي الله به الإنسان مما

يحدث الم للإنسان في نفسه غير مرغوب

فممكن يصبر الإنسان علي الابتلاء ولكن ممكن لا يرضي فالرضا في حال الربوبية فيه خلاف بين الواجب

والمستحب كالمرض يصبر الإنسان علي المرض ويطلب الشفاء ولكن ربما لا يرضي

الصبر في العبودية هو أن يتمسك بشرع الله و يصبر عليه هذا واجب أن تكون عبدا موحدا لله في أحكام

العبودية علي الدوام فلا ينفع أن يقول الإنسان أنا ليس صا بر علي أن أكون مسلم

صبر في باب الربوبية هذا صبر علي أفعال الله في الإنسان وأفعال الله في الإنسان هو توحيد الربوبية

---

[١] الكهف

صبر علي توحيد العبادة لله وهو أن يكون الإنسان مسلم علي طول أي لك معبود واحد اله واحد هذا اسمه

صبر في باب الإلوهية وهي أحكام العبودية واجب مستحب حرم مكروه

الصبر علي الواجب واجب الصبر علي المستحب مستحب الصبر علي البعد عن الحرام واجب الصبر عن البعد عن المكروه مستحب

فابن القيم لما تكلم عن الصبر علي أنه واجب أي واجب عليك أن تكون مسلما

أن الصبر عند رباب التصوف خلق فاضل من أخلاق النفس ، يمنع من فعل ما لا يحسن ولا يجمل ، وهو قوة من قوى النفس التي بها صلاح شأنها ، وقوام أمرها

الصبر في القرآن في نحو تسعين موضعا وهو واجب بإجماع الأمة وهو نصف الإيمان فإن الإيمان نصفان : نصف صبر ونصف شكر

الإيمان نصف صبر ونصف شكر

أفعال الله في الإنسان إما إكرام أو تضيق

﴿ فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (١٥) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (١٦) ﴾ [٢]

---

[٢] - الإنسان

فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ أكرمه بنعم يوسع الله بها علي الإنسان وهذا الإكرام يستوجب الشكر

وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ قدر عليه من تضيق في الرزق والفقر وهذا يستوجب الصبر

فبهذا الاعتبار ينقسم الإيمان إلي نصفين

الصبر في توحيد الربوبية لأنها أفعال الله في الإنسان واقعة لا محال فربما يعطي الله الإنسان شيء ويكره الإنسان

فلابد للإنسان أن يصبر

الصبر في توحيد العبادة إذا وفق الله العبد للطاعة فهذه الطاعة من العبد تستوجب الشكر وعلي هذا

فالصبر نصف الإيمان

فالصبر علي المصائب واجب باتفاق أئمة الدين علي أساس الصبر علي أفعال الله بنا وإنما اختلفوا في وجوب

الرضا

والصبر ثلاثة أنواع :

النوع الأول : صبر علي طاعة الله وهذا في توحيد العبادة

النوع الثاني : صبر عن معصية الله وهذا في العبادة أيضا

النوع الثالث : صبر علي امتحان الله وهذا في باب الربوبية

فالأولان : صبر على ما يتعلق بالكسب يعني العبد له دخل في اكتساب الصبر أي أن العبد أختار أن يكون عبدا لله ويصبر علي طاعة الله والبعد عن معصية الله فهذا من كسب العبد وسعيه

والثالث : صبر على ما لا كسب للعبد فيه يعني العبد ليس له حيلة فيه لأنه واقع كبلاء

يريد ابن القيم أن يبين أن الصبر علي الطاعة والبعد عن المعصية من باب الكسب للعبد وهو أقوي من الصبر في الامتحان كبلاء علي الإنسان لان الصبر علي الطاعة صبر اختيار للعبد وللعبد أن يختار ولذلك هو أقوي من الصبر في الابتلاء والامتحان لان الصبر في البلاء والامتحان واقع لا محال لا حيلة للعبد فيه أن لا يصبر

فبن القيم وبن تيمية جعلوا هذه المقدمات ليردوا علي الصوفية لأنهم جعلوا الصبر في باب الربوبية ارقي من الصبر في باب العبادة

وقد يصنف الصبر إلي ثلاثة أنواع من اعتبار آخر صبر بالله وصبر لله وصبر مع الله

١- صبر بالله وهو أول الاستعانة به فيري الصابر أن الله هو الذي يصبره كالذي يعبد الله ولكنه لا ينسي أن الفضل لله وينسب الفضل لله في الطاعة وأن صبره قائم بربه لا بنفسه

﴿ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ (١٢٧) ﴾ [٣]

فهذا صبر بالله

---

٣ - النحل

٢- صبر لله يعني العبد يصبر إخلاص لله في صبرك وعبدتك لربك فالصبر لله أقوي من الصبر بالله

٣- صبر مع الله وهذا أقوي أنواع الصبر وهو دوران العبد مع موافقة شرع الله ومراده حيثما دار وهذا في توحيد العبادة والعبد مع الأحكام الشرعية لا يفارقه متمسك بالأحكام الشرعية

وهو دوران العبد مع موافقة شرع الله ومراده الديني منه ومع أحكامه الدينية صابرا نفسه علي الالتزام بها في أي زمان أو مكان لا يفارق شريعة الله وأوامرها فهذا معني صابرا مع الله أي قد جعل نفسه وقفا علي أوامره ومحابه ينظر العبد ماذا يحبه الله فيفعله العبد ويصبر عليه

والصبر بالله هو صبر مع الله لله ولا يدخل فيها شركة كالمحبة لله لا يدخل العبد فيها مع الله شريك فيوحد الله في المحبة أو كالعبادة لله مهما كانت قوتها لان تنفع العبد إلا إذا وحد العبد الله في العبادة

فالعبادة الله كالصبر مع الله وتوحيد العبادة لله كالصبر لله والصبر بالله أن يشه العبد أنه ليس قام بنفسه إنما قائم بالله

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يقول : كان صبر يوسف عن مطاوعة امرأة العزيز على شأنها : أكمل من صبره على إلقاء إخوته له في الجب وبيعه وتفريقهم بينه وبين أبيه

صبره في حال امتناعه عن المعصية أكبر وأفضل من صبره علي إلقاءه في الجب لان صبره عن المعصية من كسبه أما صبره في الجب كان من المقدور

الصوفية قال الصبر الذي للعبد كسب فيه صبر لمقتضي الشريعة هذا صبر العامة

أما صبر الذي يوجد فيه مشاهدة للأقدار هذا صبر الخاصة

وهذا الكلام لا ينسجم مع الفطرة ولا مع القران ولا السنة

فإن هذه أمور جرت عليه بغير اختياره لا كسب له فيها ليس للعبد فيها حيلة غير الصبر وأما صبره عن المعصية : فصبر اختيار ورض ومحاربة للنفس ولا سيما مع الأسباب التي تقوى معها دواعي الموافقة

يعني عند الأسباب قوية جيداً

فإنه كان شابا وداعية الشباب إليها قوية وعزبا ليس له ما يعوضه ويرد شهوته وغريبا والغريب لا يستحي في بلد غربته مما يستحي منه من بين أصحابه ومعارفه وأهله ومملوكا والمملوك أيضا ليس وازعه كوازع الحر والمرأة جميلة وذات منصب وهي سيدته وقد غاب الرقيب وهي الداعية له إلى نفسها والحريصة على ذلك أشد الحرص ومع ذلك توعدته إن لم يفعل : بالسجن والصغار ومع هذه الدواعي كلها : صبر اختيارا وإيثارا لما عند اللّٰه وأين هذا من صبره في الجب على ما ليس من كسبه وكان يقول : الصبر على أداء الطاعات : أكمل من الصبر على اجتناب المحرمات وأفضل فإن مصلحة فعل الطاعة : أحب إلى الشارع من مصلحة ترك المعصية ومفسدة عدم الطاعة : أبغض إليه وأكره من مفسدة وجود المعصية [٤]

[٤] - مدارج السالكين - ابن قيم الجوزية ٢\١٥٦

أساليب الدعوة في القران إلي الصبر

الصبر يحتاج إلي الناس أن يتعلموه فربما الناس تتعجل والحكمة تقتضي الصبر وبن القيم لما تكلم عن الصبر قال

إن الله فصل في القران بأنواع كثيرة جيدا وأساليب متعددة منها

١- الله ﷻ أمر بالصبر وهذا أمر تكليفي فقال تعالي

﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ (٤٥) ﴾ [٥]

يعني ليس أي واحد يتحمل الصبر

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٢٠٠) ﴾ [٦]

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (١٥٣) ﴾ [٧]

٢- نهي الله ﷻ عن ضد الصبر

﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ (٣٥) ﴾ [٨]

لا يأتي أي شيء في يوم وليلة بل إن الأعداء صبروا حتى يحققوا أهدفهم منذ أن خطط لويس التاسع منذ ٧٠٠ سنة وقالوا لا تقدروا علي هزيمة المسلمين بالعسكر وإنما تقدروا عليهم عندما تفصلوا المسلمين عن دينهم إن

---

[٥] - البقرة

[٦] -آل عمران

[٧] - آل عمران

[٨] - الأحقاف]

لويس التاسع لما المسلمون غلبوا التتار فجلس لويس التاسع في دار بن لقمان ووضع خطة اسمها وثيقة الملك لويس التاسع وهي موجودة حتى الآن في متحف في باريس وهذه الوثيقة علي أساس العالم المعاصرة قال علشان نواجه المسلمين وتبقي لنا السادة علي الدوام لابد أن نفصل بين المسلمين وبين دينهم حتى يصل المسلم دائم عايش بثقافة الغرب ولا يرجع الي دينه

فهذا مخطط رسمه الغرب وصبروا عليه فلويس التاسع لم يري العالم اليوم وكيف تسود الغرب هذا العالم فهم صبروا علي هذا المخطط حتى نالوا ما خطط لهم ولذلك يأتي بعض الناس يريد أن يغير علي الفور وإلا لم يتغير المجتمع فعل ما شاء ولا يصبر فهذا مناقض للواقع ولذلك أثنى الله علي من صبر

٣- الثناء علي أهل الصبر قال الله تعالى

﴿ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ (١٧) ﴾[٩]

﴿ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾[١٠]

وأوجد الله محبته للصابرين

٤- إيجاب محبة الله للصابرين قال الله تعالى

﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (١٤٦) ﴾ [آل عمران]

---

٩ - آل عمران

١٠ - البقرة

٥- إيجاب معية اللّٰه للصابرين فقال اللّٰه تعالى

﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (٤٦) ﴾[11]

٦- الصبر خير لأصحابه فقال اللّٰه تعالى

﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ (١٢٦ ﴾[12]

فهذه الآيات كلها دليل علي أهمية الصبر للمسلمين والموحدين

٧- إيجاب الجزاء للصابرين بأحسن أعمالهم فقال اللّٰه تعالى

﴿ مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٦) ﴾[13]

٨- إطلاق البشرى لأهل الصبر دون تقييد فقال اللّٰه تعالى

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴾[14]

٩- ضمان النصر و المدد لهم فقال اللّٰه تعالى

﴿ بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ (١٢٥) ﴾[15]

والنبي ﷺ قال

---

[11] - الأنفال
[12] - النحل
[13] - النحل
[14] - البقرة
[15] آل عمران

وَاعْلَمْ أَنَّ فِي الصَّبْرِ عَلَى مَا تَكْرَهُ خَيْرًا كَثِيرًا، وَأَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ، وَأَنَّ الْفَرَجَ مَعَ الْكَرْبِ، وَأَنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا "[١٦]

١٠ – الصبر يورث الإمامة في الدين إذا اجتمع مع اليقين

﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ (٢٤) ﴾ [السجدة]

فإذا اجتمع الصبر مع اليقين وهو عمل من أعمال القلوب يحدث الإمامة في الدين علي الفور المتعجل لا يقود الناس أبدا لابد من الصبر وأن يكون الصدر واسع واستوعب الآخرين وأن تسمع منهم مادام نية العبد الوصول إلي الحق والوصول إلي الحق هو اليقين الذي يدفع الشبهة واقترن الصبر بالإسلام والإيمان

الرد علي الهروى في كلامه عن الصبر

الصبر حبس النفس على جزع كامن عن الشكوى وهو أيضا من أصعب المنازل على العامة وأوحشها في طريق المحبة وأنكرها في طريق التوحيد"[١٧]

ففي الكلام طلاسم ففي البداية قلنا أن التقسيم عن الصوفية ثلاثة أقسام العابدين المريدين العارفين

الصبر حبس النفس على جزع كامن عن الشكوى وهو أيضا من أصعب المنازل على العامة

وهو طريق العابدين وهذا هو توحيد العبادة والالتزام بالطاعة والأمر والنهي

وأوحشها في طريق التوحيد

[١٦] - أحمد في المسند ١\٣٠٧

[١٧] - منازل السائرين – الهروي صـــ ٤٩

وهو طريق المريدين

وأنكرها في طريق التوحيد

وهو طريق العارفين يقول إن الصب منكرا في طريق التوحيد والهروي كان يحارب الجهمية ويقول الآن الصبر منكر في طريق التوحيد

لو أن شخص لم يعرف تقسيمات الصوفية في العابدين والمريدين والعارفين لا يمكن أن يفهم كلام الهروي هذا ولا أن يفهم كلام بن القيم لان الهروي في كل منزلة من المنازل يتكلم بهذه التقسيمات والهروي يعلل كلامه بهذا بأن الصبر علي العامة بأن العامي عابد مبتدئ في الطريق وليس له تدريب في السلوك ولا تهذيب ولا تجربة أو لا تعود له علي منازل العبودية فإذا أصابته المحن أدركه الجزع وصعب عليه احتمال البلاء وعز عليه وجدان الصبر وكذلك العامي ليس من المريدين أهل المحبة حتى يتلذذ بالبلاء في رضا محبوبه

يعني أن الصبر محتاج إلي تحمل ومشقة وقوة التحمل والمشقة أن يصبر علي الطاعة والبعد عن المعصية وهذا صبر العابد أو صبر العامة عنده

أما صبر المريد عنده هو أن يتلذذ بالمرض وهذا بالطبع ينافي الفطرة

وحتى لو لم يكن من العامة وكان من المريدين فالصبر ثقيل علي المريد لأنه يتألم من المرض ويتلذذ به

وقال وكون الصبر وحشة في طريق المحبة بأنها تقتضي التذاذ المحب بامتحان محبوبه له

ومعني ذلك أن المريد لازم يتلذذ بالمرض وما أشبه ذلك

فهو يقول أن الصبر يقتضي كراهية ذلك لذلك قال الصبر لو جاء أصبح وحشة في طريق المحبة لان الشخص في حالة المرض لا يصبر علي المرض بل يتلذذ بالمرض ومعني هذا الكلام أن العبد يأتيه المرض فيتلذذ به ولا يسأل الله العافية لأنه لو سئل الله العافية فلا يكون صابرا في هذا الوقت فأصبح الدعاء بالعافية ينفي الصبر فهذا في حال العابد والمريد

أما في حال العارف فيعلل ذلك فيقول الصبر أي صبر العارف فيه قوة الدعوي أي ما دام الإنسان ينسي المرض في مشاهدة مولاه في هذه الحالة عند قوة صبر لدرجة أنه يتلذذ بالمرض من قوة الصبر

ولان الصابر يدعي بحاله قوة الثبات وهذه مصادمة لتجريد التوحيد إذ ليس لأحد قوة ألبته بل القوة لله جميعا

فهو يقول لو تلذذ العبد بالمرض هذا معناه أنك تدعي أنك صابرا ومن شدد الصبر جعتك تتلذذ بالمرض وهذا يناقض التوحيد كما قال بن عربي في الذكر أنا لا أذكره لأنني لم أنساه وكما قال الا بذكر الله تزداد الذنوب وتنقلب البصائر والعيوب وترك الذكر أفضل من كل شيء وشمس الذات ليس لها غروب وهذا ما يشير إليه الهروي في كلامه فان سياق الكلام يشير إلي ذلك ولذلك قال الهروي وأنكرها في طريق التوحيد أي الصبر منكر في طريق التوحيد

تعقيب بن القيم علي كلام الهروي

قال بن القيم المنكر الحقيقي هو كلام الهروي وهذا دليل علي أن بن القيم لم يكن ليشرح منازل السائرين بل كان يرد علي الهروي بزعم أنه يشرح كتاب منازل السائرين

بل الصبر من آكد المنازل في طريق المحبة وألزمها للمحبين وهم أحوج إلى منزلته من كل منزلة وهو من أعرف المنازل في طريق التوحيد وأبينها وحاجة المحب إليه ضرورية

فإن قيل : كيف تكون حاجة المحب إليه ضرورية مع منافاته لكمال المحبة فإنه لا يكون إلا مع منازعات النفس لمراد المحبوب

يعني أن الله أرد أن يبتليك بمرض فكون أن الشخص ينازع من المرض ويدعوا الله أن يشفيه يقول أنها منازعة للنفس مع أن مراد الله أن يبتليك وهذا سببه أنهم لا يفرقون بين الإرادة الكونية والإرادة الشرعية

قيل : هذه هي النكتة التي لأجلها كان من آكد المنازل في طريق المحبة وأعلقها بها وبه يعلم صحيح المحبة من معلولها وصادقها من كاذبها فإن بقوة الصبر على المكاره في مراد المحبوب يعلم صحة محبته

ومن ههنا كانت محبة أكثر الناس كاذبة لأنهم كلهم ادعوا محبة اللّٰه تعالى فحين امتحنهم بالمكاره انخلعوا عن حقيقة المحبة

الكل يدعي المحبة والله لو أعطانا كل ما يسعد النفس من جاه ورياسة وما أشبه ذلك فيقول أن أحب ربنا وهو علي ذلك ولكن وقت أن يبتلي الله العبد بالمرض تظهر المحبة علي الفور من خلال الصب علي المرض أو عدمه

ولم يثبت معه إلا الصابرون فلولا تحمل المشاق وتجشم المكاره بالصبر : لما ثبتت صحة محبتهم وقد تبين بذلك أن أعظمهم محبة أشدهم صبرا[١٨]

ولهذا وصف اللّٰه تعالى بالصبر خاصة أوليائه وأحبابه فقال عن حبيبه أيوب فقال تعالى

﴿ وَجَدْنَاهُ صَابِرًا ﴾ ثم أثنى عليه فقال ﴿ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (٤٤) ﴾ [ص]

وأمر أحب الخلق إليه بالصبر لحكمه وأخبر أن صبره به وأثنى على الصابرين أحسن الثناء وضمن لهم أعظم الجزاء وجعل أجر غيرهم محسوبا وأجرهم بغير حساب وقرن الصبر بمقامات الإسلام والإيمان والإحسان كما تقدم فجعله قرين اليقين والتوكل والإيمان والأعمال والتقوى وأخبر أن آياته إنما ينتفع بها أولو الصبر وأخبر أن الصبر خير لأهله وأن الملائكة تسلم عليهم في الجنة بصبرهم كما تقدم ذلك وليس في استكراه النفوس لألم ما تصبر عليه وإحساسها به ما يقدح في محبتها ولا توحيدها فإن إحساسها بالألم ونفرتها منه أمر طبعي لها كاقتضائها للغذاء من الطعام والشراب وتألمها بفقده فلوازم النفس لا سبيل إلى إعدامها أو تعطيلها بالكلية وإلا لم تكن نفسا إنسانية ولارتفعت المحنة وكانت عالما آخر

فهذا ما كان عليه الأنبياء والصادقين في الصبر لا كما يدعي أن المريد يصبر علي المرض بالتلذذ بالمرض وأنا فرحنا بالمرض وهذا الكلام منافي للفطرة ولذلك قال بن القيم

والصبر والمحبة لا يتناقضان بل يتواخيان ويتصاحبان والمحب صبور بل علة الصبر في الحقيقة : المناقضة للمحبة المزاحمة للتوحيد أن يكون الباعث عليه غير إرادة رضى المحبوب بل إرادة غيره أو مزاحمته بإرادة غيره أو المراد منه لا مراده هذه هي وحشة الصبر ونكارته

---

[١٨] - مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ابن قيم الجوزية ٢/ ١٦٢

يعني يصبر لهدف كمن صبر علي بلاء ليعطى وظيفة وصابر علي عدم النطق بكلمة الحق علشان فلان يعينه وزير أو ما أشبه ذلك

وأما من رأى صبره بالله وصبره لله وصبر مع الله مشاهدا أن صبره به تعالى لا بنفسه فهذا لا تلحق محبته وحشة ولا توحيده نكارة[19]

ويكفي هذا فيما يتعلق بالصبر ونسال الله تعالى أن نصبر مع الله وبالله ولله

التوكل من أعمال القلوب الواجبة علي المقتصدين والسابقين

التوكل نصف الدين والنصف الثاني الإنابة يعني الدين عبارة عن ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ إنابة ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ توكل

يبقي التوكل هنا نصف الدين لان لو الإنسان اتجه إلي ربه ورجع إليه وعبده واستعنت به هذا توكل علي الله

فالتوكل هو الاستعانة والإنابة هي العبادة ومنزلة التوكل أوسع المنازل وأجمعها لماذا ؟

أوسع المنازل وأجمعها ولا تزال معمورة بالنازلين لسعة متعلق التوكل وكثرة حوائج العالمين وعموم التوكل ووقوعه من المؤمنين والكفار والأبرار والفجار والطير والوحش والبهائم

بن القيم يقصد أن التوكل استعانة فهل في واحد إن كان مسلم أو كافر يستغني عن ربنا ؟ لا لأننا محتجون إلي الله شئنا أم أبينا سواء كان الشخص مسلم أو كافر فلازم يستعين بالله لان لا يوجد خالق غيره وليس يوجد

---

١٩ - السابق

من يهيئ الأسباب غيره فهنا ممكن نجد كل الخلائق ترجع في الاستعانة والتوكل علي الله وهذا التوكل متعلق بتوحيد الربوبية وليس توحيد العبادة

فأهل السموات والأرض المكلفون وغيرهم في مقام التوكل وإن تباين متعلق توكلهم فأولياؤه وخاصته يتوكلون عليه في حصول ما عليه في الإيمان ونصرة دينه وإعلاء كلمته وجهاد أعدائه وفي محابه وتنفيذ أوامره[٢٠]

فالذي يبين حقيقة التوكل متعلق التوكل أي في ماذا أتوكل علي ؟ هل أتوكل علي في المعاصي والكفر أم أتوكل عليه في الطاعة والإيمان ؟ والجواب حسب حال الإنسان فالمسلمون الموحدون يتوكلون علي الله في حال الطاعة أما أهل المعاصي والكفر يتوكلون علي الله في المعاصي فالمسلمون الموحدون يتوكلون علي الله في حال الطاعة وهذا هو التوكل الحقيق الذي فيه ثمرة القلب فالتوكل معناه الاعتماد علي الغير فأنا أتوكل علي الله في ما أمرنا الله به شرعا وليس في الأمر الكوني لان الأمر الكوني ساري علي المسلم والكافر وليس كما زعم بعض الناس بأن امرأة قالت يارب لا تكتب علي الحجاب فهي تستعين بالله علي معصيته وهذا عكس أهل التوحيد والإيمان لان أهل التوحيد والإيمان يتوكلون علي الله ويستعينوا به بطلب إرادته الكونية لتحقيق إرادته الشرعية وهذا هو الفارق

ودون هؤلاء من يتوكل عليه في استقامته في نفسه وحفظ حاله مع الله فارغا عن الناس

---

[٢٠] - السابق

ودون هؤلاء من يتوكل عليه في معلوم يناله منه من رزق أو عافية أو نصر على عدو أو زوجة أو ولد ونحو ذلك

ودون هؤلاء من يتوكل عليه في حصول الإثم والفواحش

فإن أصحاب هذه المطالب لا ينالونها غالبا إلا باستعانتهم باللّٰه وتوكلهم عليه بل قد يكون توكلهم أقوى من توكل كثير من أصحاب الطاعات

يعني أهل التوحيد والإيمان ممكن يكون توكلهم علي الله في الطاعات أقل من أهل المعاصي في توكلهم علي العصيان ولذلك تجد الواحد منهم ممكن يلقي نفسه في المهالك والمتاعب ويقول الله ينجني من ذلك

ولهذا يلقون أنفسهم في المتالف والمهالك معتمدين على اللّٰه أن يسلمهم ويظفرهم بمطالبهم

فأفضل التوكل: التوكل في الواجب أعني واجب الحق وواجب الخلق وواجب النفس وأوسعه وأنفعه

واجب الحق توحيد العبادة لله

وواجب الخلق في أداء حقوقهم

وواجب النفس في أن الإنسان يقوم بما عليه

وأوسعه وأنفعه التوكل في التأثير في الخارج

في التأثير في الخارج أي خارج الذهن (الواقع) لان التوكل المفترض أنه في القلب

في مصلحة دينية أو في دفع مفسدة دينية

وهو أن أخذ بالأسباب في دفع مفسدة وجلب مصلحة في دين الله ففي هذه الحالة لما يعتمد الشخص علي الله

ويستعين به في الأخذ بالأسباب في أداء طاعته فهذا أنفع الأسباب وهذه معني عبارة بن القيم

وهو توكل الأنبياء في إقامة دين اللّه ودفع فساد المفسدين في الأرض وهذا توكل ورثتهم ثم الناس بعد في التوكل على حسب هممهم ومقاصدهم فمن متوكل على اللّه في حصول الملك ومن متوكل في حصول رغيف

ومن صدق توكله على اللّه في حصول شيء ناله فإن كان محبوبا له مرضيا كانت له فيه العاقبة المحمودة وإن كان مسخوطا مبغوضا كان ما حصل له بتوكله مضرة عليه

يعني كل واحد يتوكل والإنسان حسب طلب توكله فان كان شيء شرعي فالنتيجة محمودة وان كان غير ذلك

فالعاقبة علي من أتخذ التوكل فيما طلبه كما قال الله تعالى

﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى (٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى (٦) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى (٧) وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى (٨) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى (٩) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى (١٠) ﴾ [٢١]

وإن كان مباحا حصلت له مصلحة التوكل دون مصلحة ما توكل فيه إن لم يستعن به على طاعاته واللّه أعلم [٢٢]

---

[٢١] - الليل

[٢٢] - السابق

حقيقة التوكل علي الله ودرجاته وأركانه التي لا يتم إلا بها

التوكل عمل قلب وليس بقول اللسان ولا عمل الجوارح ولا هو من باب العلوم الإدراكات هل التوكل علم ؟ لا التوكل عمل ولكن عمل قلبي فالمتوكل لازم له أن يعتمد بقلبه فان كان القلب سيعتمد علي ربه ففي الإنسان قلب وجوارح القلب لابد أن يعتمد علي الله ويخلوا القلب تمام من الأسباب والتعلق بها وجوارح الإنسان تتعلق بالأسباب فالذي يباشر العمل في الخارج الجوارح فالجوارح تتعلق بالأسباب أما القلب لابد أن يتعلق بالله ويترك كل الأسباب فالقلب يعتقد أن الخالق المدبر للأشياء هو الله والجوارح تباشر ذلك ولا ينفع أن اجعل قلب وجوارح متوكل بدون الأسباب ولا يمكن أيضا أن أعلق قلب وجوارح بالأسباب فلابد للقلب من التوكل والجوارح من العمل بالتعلق بالأسباب

ولذلك التوكل عمل قلبي وليس أيضا معرفة لأنه ممكن واحد يقول أن التوكل هو العلم بأن الله يخلق الأشياء وهذا خطا لأن التوكل عمل وليس علم فالتوكل هو نفسه يتوكل علي الله يعتقد القلب أن الله الذي يخلق الأشياء الذي يبشرها فيبشرها ببدنه وقلبه متعلق بالأسباب

فممكن واحد يقول أنا بقلبي وجوارح أعتمد علي الأسباب وهذا شرك

وممكن واحد يقول أنا أعتمد بقلبي وجوارحي علي الله وهذا اسمه تواكل وشحاتة ومد يد كما الصوفية تعمل في الخلوات

إنما المنهج الوسط أن القلب يعتمد علي الله والجوارح تعتمد علي الأسباب فأفرغ قلبي من الاعتماد علي الأسباب واجعل الجوارح تباشر الأسباب

التوكل عمل القلب ومعنى ذلك : أنه عمل قلبي ليس بقول اللسان ولا عمل الجوارح ولا هو من باب العلوم والإدراكات

ومن الناس : من يجعله من باب المعارف والعلوم فيقول : هو علم القلب بكفاية الرب للعبد

ومنهم : من يفسره بالسكون وخمود حركة القلب فيقول : التوكل هو انطراح القلب بين يدي الرب كانطراح الميت بين يدي الغاسل يقلبه كيف يشاء وهو ترك الاختيار والاسترسال مع مجاري الأقدار [٢٣]

وهو أن يقول العبد أنا مش هعمل حاجة خالص وأنا قاعد مستني قدري فأنا ماشي مع إرادة الله الكونية وليس الإرادة الشرعية هذا معني الاسترسال مع مجاري الأقدار

يعني أنا ماشي كما القدر يوجهني كما سئل سهل بن عبد الله التستري لمن قال أنا كالباب لا أتحرك إلا أن يحركوني فقال سهل بن عبد الله التستري لا يقول هذا إلا صديق أو زنديق

وهذا يعني إن كان يريد المعني الشرعي فهو صديق وإن كان يريد المعني الكوني فهو زنديق والزنديق يريد أن يقول أنا ماشي مع مراد الله ويفعل الفحشاء ويقول أنا ماشي معني مراد الله فالذي يقتل ويسرق يحتج بقدر الله علي معصيته بخلاف من أطاع رب العزة والجلال ويتمسك بالإرادة الله الشرعية ولذلك قلنا أن إرادة الله الشرعية والكونية تجتمعان في المؤمن وتفترقان في الكافر

---

٢٣ - مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين لابن القيم ١١٤/٢

التوكل حال مركبة من مجموع أمور لا تتم حقيقة مجموعة أمور مع بعض لازم تشترك فيها جميع أعضاء البدن

فأول ذلك : معرفة بالرب وصفاته : من قدرته وكفايته وقيوميته وانتهاء الأمور إلى علمه وصدورها عن مشيئته وقدرته وهذه المعرفة أول درجة يضع بها العبد قدمه في مقام التوكل

١- أن يعرف العبد ربه وصفاته وقدرته وكفايته وقيوميته وانتهاء الأمور إلي علمه وصدورها عن مشيئته وقدرته

أخذنا في مراتب القدر إنها علم وكتبة ومشيئة وخلق وهذه المراتب لها لوازم فكون أن الإنسان يؤمن بمراتب القضاء والقدر فلازم قبلها يؤمن الإنسان بالأسماء والصفات فهو القدير الموصوف بالقدرة وكونه موصوف بالقدرة فهو يخلق الأشياء لان العاجز لا يخلق فسترد الأمور في مسائل القضاء والقدر إلي الأسماء والصفات باب الإيمان بالقدرة وكذلك باب الإيمان بالحكمة فكون أن الإنسان يفهم قضايا القضاء والقدر ومن قبلها الأسماء والصفات هذا أو أركان التوكل علي الله

ولذلك قال بن القيم

ولذلك لا يصح التوكل ولا يتصور من فيلسوف ولا من القدرية النفاة القائلين : بأنه يكون في ملكه ما لا يشاء ولا يستقيم أيضا من الجهمية النفاة لصفات الرب جل جلاله ولا يستقيم التوكل إلا من أهل الإثبات وهم أهل السنة لان الفلاسفة والمتكلمين والجهمية لا يثبتون أوصاف الحق مادام لم يثبت أوصاف الحق فكيف يتوكل عليه وهو لا يثبت الصفات بل هم يعتمدون علي أسباب محضة

فأي توكل لمن يعتقد أن اللّه لا يعلم جزئيات العالم سفليه وعلويه ولا هو فاعل باختياره ولا له إرادة ومشيئة ولا يقوم به صفة فكل من كان باللّه وصفاته أعلم وأعرف : كان توكله أصح وأقوى واللّه سبحانه وتعالى أعلم

ولذلك لا يتوكل علي الله إلا أهل التوحيد الذين يثبتون أسماء الله وصفاته

٢- الأخذ بالاسباب فتوكله مدخول وهذا عكس ما يظهر في بدوات الرأي : أن إثبات الأسباب يقدح في التوكل وأن نفيها تمام التوكل

فربما يقدح البعض في من يأخذ بالاسباب علي أنه ينافي التوكل لانه يبحث في الارض للعيش والرزق

فاعلم أن نفاة الأسباب لا يستقيم لهم توكل ألبتة لأن التوكل من أقوى الأسباب في حصول المتوكل فيه فهو كالدعاء الذي جعله اللّه سببا في حصول المدعو به فإذا اعتقد العبد أن توكله لم ينصبه اللّه سببا ولا جعل دعاءه سببا لنيل شيء فإن المتوكل فيه المدعو بحصوله : إن كان قد قدر حصل توكل أو لم يتوكل دعا أو لم يدع وإن لم يقدر لم يحصل توكل أيضا أو ترك التوكل وهو الواقع وهو أن يكون قض بحصول الشيء عند حصول سببه من التوكل والدعاء فنصب الدعاء والتوكل سببين لحصول المطلوب وقض بحصوله إذا فعل العبد سببه فإذا لم يأت بالسبب امتنع المسبب وهذا كما قض بحصول الولد إذا جامع الرجل من يحبلها فإذا لم يجامع لم يخلق الولد

وقض بحصول الشبع إذا أكل والري إذا شرب فإذا لم يفعل لم يشبع ولم يرو وقض بحصول الحج والوصول إلى مكة إذا سافر وركب الطريق فإذا جلس في بيته لم يصل إلى مكة وقض بدخول الجنة إذا أسلم وأتى بالأعمال الصالحة فإذا ترك الإسلام ولم يعمل الصالحات : لم يدخلها أبدا وقض بإنضاج الطعام بإيقاد النار تحته

من تمام التوكل : عدم الركون إلى الأسباب وقطع علاقة القلب بها فيكون حال قلبه قيامه بالله لا بها وحال بدنه قيامه بها [٢٤]

يعني القلب لا يتعلق بالسبب وإنما الجوارح تعمل بالأسباب لتحقيق حكمة الله تعالى

الله اظهر الأشياء خلقا بقدرته ورتب الأسباب شرعا بحكمته فالإنسان بين القدرة والحكمة

لماذا كتب الله ﷻ في اللوح المحفوظ ؟ إظهار لقدرته

لماذا أخفى الله ﷻ ما في اللوح المحفوظ ؟ إظهار لحكمته

فلابد أن يؤمن الانسان بالأمرين بالقدرة والحكمة

لماذا يوجد إرادة كونية ؟ إظهار لقدرته

لماذا يوجد إرادة شرعية ؟ إظهار لحكمته

لماذا يوجد مشيئة ولا تكون الا كونية ؟ إظهار لقدرته

لماذا يوجد محبة ولا تكون الا شرعية ؟ إظهار لحكمته

فالله يخلق الناس جميعا بمشيئته وقدرته فخلق المؤمن والكافر لكن لا يحب الا المؤمنين ولا يبعضوا الا العاصين

---

٢٤ - مدارك السالكين لابن القيم ١٢٠ \ ١٢٠

فالمحبة خاصة والمشيئة عامة والقدرة عامة والناس تستعين بالقدرة لانها عاجزة فالاستعانة بابها واسع يستعين بها المؤمن والكافر إنما الذي يطلب الحكمة والشريعة هم خاصة الموحدين وأهل محبته فيتمسكون بشرع الله وحكمته وإذا فهم العبد هذا الكلام يفتح له أبواب كثيرة تشعر فيها الانسان بالحكم العليا

من تمام التوكل : عدم الركون إلى الأسباب وقطع علاقة القلب بها فيكون حال قلبه قيامه بالله لا بها وحال بدنه قيامه بها

قلب الانسان متعلق به لا بالاسباب انما الاسباب يأخذ بها تحقيق لحكمته فهي له تاثير بحيث أرد الله لنا الالا تطلع الثمرة الا بعد أن أضع البذرة فلا يمكن أن يقول الانسان أن اذهب لزرع الارض بدون أن يأتي بالبذرة الا في خوارج للعادات ولكن هما خارق العادة شاذ بحيث لو أن كل الحياة قائمة علي خارق العادة لتعطلت الحكمة كما قال الله تعالى لمريم

﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٧) ﴾ [٢٥]

فهنا يخرق الله العادة في بعض المواطن تأيد لبعض أوليائه في ثقتهم بربهم أن العبد مؤمن أن قدرة الله هي الغالبة وإنما اخذ بالأسباب تحقيق لحكمته فلو دعا ربه لاستجاب له وخرق له العادة كما قال الله تعالى عن إبراهيم

﴿ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ (٦٩) ﴾ [٢٦]

---

[٢٥] - آل عمران

فالمعروف أن النار تحرق من يدخلها ولكن خرق العادة وشاء الله أن لا يحرق

فالأسباب محل حكمة اللّٰه وأمره ودينه والتوكل متعلق بربوبيته وقضائه وقدره

فالأسباب تظهر الحكمة فتتعلق بإرادة الله الشرعية فتأخذ بالأسباب ضروري وإلا عاصي لله ورسوله

والتوكل متعلق بالقدرة وبربوبية الله

فلا تقوم عبودية الأسباب إلا على ساق التوكل ولا يقوم ساق التوكل إلا على قدم العبودية واللّٰه

يعني لا يمكن أن يقول شخص إني مستعين بالله ومتوكل عليه وهو تارك بالاخذ بالاسباب التي شرعها الله ﷻ

لازم الاثنين معا

٣- رسوخ القلب في مقام التوحيد

يعني في توكل نعم لكن ممكن يكون شريك يعني يقول انا متوكل علي من ممكن يكون علي الله وكذلك البدوي مع

الله أو كما يقول العبد توكلت علي الله وعليك فهذا شرك في التوكل وان كان شرك اصغر

لكن الصح أن يقول توكلت علي الله ثم عليك فهذا اخذ بالاسباب

لا يعتمد العبد في القلب الا علي ربه إما من خلال الاسباب فيعتمد علي بدنه

بل حقيقة التوكل توحيد القلب فما دامت في علائق الشرك فتوكله معلول

[٢٦] - الأنبياء

ثمرة هذه المسالة الا يحمد مخلوقا أو يذمه علي عطاء أو منع إذا أعطي أو فهو الله فنقول للشخص جزاك الله خيرا علي ما قدم بالاخذ بالاسباب موافق للشرعه وإذا العكس من إيذاء فنقول عليك من الله ما تستحق لذلك مقام التوكل يعطي رسوخ في القلب

٤- حسن الظن بالله

٥- استسلام القلب له قبل الأخذ بالأسباب وبعده

التوكل لما تلخص كلام بن القيم ثلاثة أركان

١- اعتماد القلب علي الله في باب الربوبية

٢-الأخذ بالأسباب

٣- الرضا بالمقدر (تفويض الأمر إلي الله ﷻ) (الرضا بالنتائج)(الرضا بما قدره الله)

قدر الله بعد الأخذ بالأسباب لكن لو قلت أنا ارض بالمقدر قبل الأخذ بالأسباب هذا تواكل وإلقاء النفس في التهلكة استسلام القلب له قبل الأخذ بالأسباب وبعده وهو إلقاء أموره كلها إلى الله ﷻ وإنزالها

به طلبا واختيارا لا كرها واضطرارا بل كتفويض الابن العاجز الضعيف المغلوب على أمره: كل أموره إلى أبيه العالم بشفقته عليه ورحمته وتمام كفايته وحسن ولايته له وتدبيره له فهو يرى أن تدبير أبيه له خير من تدبيره لنفسه وقيامه بمصالحه وتوليه لها خير من قيامه هو بمصالح نفسه وتوليه لها فلا يجد له أصلح ولا أرفق من تفويضه أموره كلها إلى أبيه وراحته من حمل كلفها وثقل حملها مع عجزه عنها وجهله بوجوه المصالح فيها وعلمه بكمال علم من فوض إليه وقدرته وشفقته

وهذا معنى الاستخارة

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ

كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُعَلِّمُنَا الِاسْتِخَارَةَ فِي الْأُمُورِ كُلِّهَا كَمَا يُعَلِّمُنَا السُّورَةَ مِنْ الْقُرْآنِ يَقُولُ إِذَا هَمَّ أَحَدُكُمْ بِالْأَمْرِ فَلْيَرْكَعْ رَكْعَتَيْنِ مِنْ غَيْرِ الْفَرِيضَةِ ثُمَّ لِيَقُلْ اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَخِيرُكَ بِعِلْمِكَ وَأَسْتَقْدِرُكَ بِقُدْرَتِكَ وَأَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ الْعَظِيمِ فَإِنَّكَ تَقْدِرُ وَلَا أَقْدِرُ وَتَعْلَمُ وَلَا أَعْلَمُ وَأَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ خَيْرٌ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي أَوْ قَالَ عَاجِلِ أَمْرِي وَآجِلِهِ فَاقْدُرْهُ لِي وَيَسِّرْهُ لِي ثُمَّ بَارِكْ لِي فِيهِ وَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ شَرٌّ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي أَوْ قَالَ فِي عَاجِلِ أَمْرِي وَآجِلِهِ فَاصْرِفْهُ عَنِّي وَاصْرِفْنِي عَنْهُ وَاقْدُرْ لِي الْخَيْرَ حَيْثُ كَانَ ثُمَّ أَرْضِنِي قَالَ وَيُسَمِّي حَاجَتَهُ[٢٧]

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ

خَرَجَ عَلَيْنَا النَّبِيُّ ﷺ يَوْمًا فَقَالَ عُرِضَتْ عَلَيَّ الْأُمَمُ فَجَعَلَ يَمُرُّ النَّبِيُّ مَعَهُ الرَّجُلُ وَالنَّبِيُّ مَعَهُ الرَّجُلَانِ وَالنَّبِيُّ مَعَهُ الرَّهْطُ وَالنَّبِيُّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ وَرَأَيْتُ سَوَادًا كَثِيرًا سَدَّ الْأُفُقَ فَرَجَوْتُ أَنْ تَكُونَ أُمَّتِي فَقِيلَ هَذَا مُوسَى وَقَوْمُهُ ثُمَّ قِيلَ لِي انْظُرْ فَرَأَيْتُ سَوَادًا كَثِيرًا سَدَّ الْأُفُقَ فَقِيلَ لِي انْظُرْ هَكَذَا وَهَكَذَا فَرَأَيْتُ سَوَادًا كَثِيرًا سَدَّ الْأُفُقَ فَقِيلَ هَؤُلَاءِ أُمَّتُكَ وَمَعَ هَؤُلَاءِ سَبْعُونَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ فَتَفَرَّقَ النَّاسُ وَلَمْ يُبَيَّنْ لَهُمْ فَتَذَاكَرَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالُوا أَمَّا نَحْنُ فَوُلِدْنَا فِي الشِّرْكِ وَلَكِنَّا آمَنَّا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَكِنْ هَؤُلَاءِ هُمْ أَبْنَاؤُنَا فَبَلَغَ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ هُمْ الَّذِينَ لَا يَتَطَيَّرُونَ وَلَا يَسْتَرْقُونَ وَلَا يَكْتَوُونَ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ فَقَامَ عُكَّاشَةُ بْنُ مِحْصَنٍ فَقَالَ أَمِنْهُمْ أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ نَعَمْ فَقَامَ آخَرُ فَقَالَ أَمِنْهُمْ أَنَا فَقَالَ سَبَقَكَ بِهَا عُكَاشَةُ[٢٨]

الوصف الجامع هو التوكل لذلك التوكل من اكبر المقامات في الدين

---

[٢٧] - البخاري (٥٧٥٢)

[٢٨] البخاري (٥٧٠٥) ومسلم (٥٤٩)

الرضا من عبوديات القلب المترددة بين الواجب والمستحب

اجمع العلماء علي أن الرضا بالقضاء مستحب واستحبابه مؤكد واختلفوا في وجوبه علي قولين وكان بن تيمية يذهب إلي القول بالاستحباب إنما الصبر جاء بالوجوب أما الرضا جاء بالمدح والثناء علي أهله فهذا الرضا بالقضاء الرضاء بأفعال الله بنا

فلابد أن تفرق في الرضا بين جهتين

الجهة الأولى : الرضا بالقضاء وأفعال الله بنا

الجهة الثانية : الرضا بالله ربا والإسلام دينا ومحمد نبيا

الرضا بالله ربا والإسلام دينا ومحمد نبيا هذا الرضا واجب ولا يكون المسلم مسلما الا إذا رضي بهذا الرضا

ولكن هم اختلفوا في الرضا بالقضاء

عَنِ الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ﷺ

أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ « ذَاقَ طَعْمَ الإِيمَانِ مَنْ رضي بِاللَّهِ رَبًّا وَبِالإِسْلاَمِ دِينًا وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولاً ».[29]

أي ترضى بالله ﷻ معبود

عَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِى وَقَّاصٍ ﷺ

عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ « مَنْ قَالَ حِينَ يَسْمَعُ الْمُؤَذِّنَ أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ رَضِيتُ بِاللَّهِ رَبًّا وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولاً وَبِالإِسْلاَمِ دِينًا. غُفِرَ لَهُ ذَنْبُهُ ».[30]

[29] - مسلم (١٦٠)

قَالَ ابْنُ رُمْحٍ فِى رِوَايَتِهِ « مَنْ قَالَ حِينَ يَسْمَعُ الْمُؤَذِّنَ وَأَنَا أَشْهَدُ ».

وَلَمْ يَذْكُرْ قُتَيْبَةُ قَوْلَهُ وَأَنَا.

وهذان الحديثان عليهما مدار مقامات الدين وإليهما ينتهي وقد تضمنا الرضي بربوبيته سبحانه وإلوهيته والرضي برسوله والانقياد له والرضي بدينه والتسليم له ومن اجتمعت له هذه الأربعة : فهو الصديق حقا وهي سهلة بالدعوى واللسان وهي من أصعب الأمور عند الحقيقة والامتحان ولا سيما إذا جاء ما يخالف هوى النفس ومرادها من ذلك : تبين أن الرضي كان لسانه به ناطقا فهو على لسانه لا على حاله[31]

فالله عَجَّلَ لا يبتلي العباد بشيء لا يهونه وإنما يبتلي العباد بشيء يهونه

فالرضى بإلهيته يتضمن الرضى بمحبته وحده وخوفه ورجائه والإنابة إليه والتبتل إليه وانجذاب قوى الإرادة والحب كلها إليه فعل الراضي بمحبوبه كل الرضى وذلك يتضمن عبادته والإخلاص له والرضى بربوبيته : يتضمن الرضى بتدبيره لعبده ويتضمن إفراده بالتوكل عليه والاستعانة به والثقة به والاعتماد عليه وأن يكون راضيا بكل ما يفعل به

الرضا بإلهيته : هو الرضا بمقتضي حكمته ومقتضي شرعية وتدبير شرعية

والرضا بربوبيته : هو الرضا بمقتضي قدرته ورضا بتدبيره الكوني

جعل الهروي الرضا بالشريعة أقل منازل الرضا وجعل الرضا بالربوبية أكمل من الرضا بالعودية لذلك قال بن القيم في الرد عليه

الرضى بالله ربا وتسخط عبادة ما دونه وهذا قطب رحى الإسلام وهو يطهر من الشرك الأكبر

---

[30] ٠السابق (٨٧٧)

[31] - مدارك السالكين لابن القيم ٢/ ١٧٢

الرض بالله ربا : أن لا يتخذ ربا غير الله تعالى يسكن إلى تدبيره وينزل به حوائجه

قال الله تعالى

﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ﴾[٣٢]

قال ابن عباس رضى الله عنهما : سيدا وإلها يعني فكيف أطلب ربا غيره وهو رب كل شيء وقال في أول السورة ﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٤) ﴾ يعني معبودا وناصرا ومعينا وملجأ وهو من الموالاة التي تتضمن الحب والطاعة وقال في وسطها ﴿ أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (١١٤) ﴾[٣٣]

أي أفغير الله أبتغي من يحكم بيني وبينكم فنتحاكم إليه فيما اختلفنا فيه وهذا كتابه سيد الحكام فكيف نتحاكم إلى غير كتابه وقد أنزله مفصلا مبينا كافيا شافيا

قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا الولاية تكون في الشريعة لذلك قال بعدها قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فهذه ولاية بسبب اتخاذ الله اله ومعبودا شرعا

أما الرضا بالله ربا فإن امن العبد بالله شرعا امن به ربا فإذا كان الأمر كذلك فلا يمكن أن يكون أفضل من ذلك وهو الأكمل الرضا بالله شرعا

---

٣٢ - الأنعام

٣٣ - الأنعام

وأنت إذا تأملت هذه الآيات الثلاث حق التأمل رأيتها هي نفس الرض بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد رسولا ورأيت الحديث يترجم عنها ومشتق منها فكثير من الناس يرض بالله ربا ولا يبغي ربا سواه لكنه لا يرض به وحده وليا وناصرا بل يوالي من دونه أولياء ظنا منه أنهم يقربونه إلى الله وأن موالاتهم كموالاة خواص الملك وهذا عين الشرك بل التوحيد : أن لا يتخذ من دونه أولياء والقرآن مملوء من وصف المشركين بأنهم اتخذوا من دونه أولياء

وكثير من الناس يبتغي غيره حكما يتحاكم إليه ويخاصم إليه ويرض بحكمه وهذه المقامات الثلاث هي أركان التوحيد : أن لا يتخذ سواه ربا ولا إلها ولا غيره حكما

وتفسير الرض بالله ربا : أن يسخط عبادة ما دونه هذا هو الرض بالله إلها وهو من تمام الرض بالله ربا فمن أعطى الرض به ربا حقه سخط عبادة ما دونه قطعا لأن الرض بتجريد ربوبيته يستلزم تجريد عبادته كما أن العلم بتوحيد الربوبية يستلزم العلم بتوحيد الإلهية

الدرجة الثانية : وهو الرض عنه في كل ما قض وقدر وهذا من أوائل مسالك أهل الخصوص الشيخ جعل هذه الدرجة أعلى من الدرجة التي قبلها ووجه قوله : أنه لا يدخل في الإسلام إلا بالدرجة الأولى فإذا استقر قدمه عليها دخل في مقام الإسلام

وأما هذه الدرجة : فمن معاملات القلوب وهي لأهل الخصوص وهي الرض عنه في أحكامه وأقضيته

أحكامه وأقضيته : المقصود بها هنا الكونية

وإنما كان من أول مسالك أهل الخصوص لأنه مقدمة للخروج عن النفس والذي هو طريق أهل الخصوص فمقدمته بداية سلوكهم لأنه يتضمن خروج العبد عن حظوظه ووقوفه مع مراد الله عز و جل لا مع مراد نفسه[٣٤]

أي درجة المريدين الذي لا يريد شيا لنفسه

---

[٣٤] - السابق

يعقب بن القيم علي كلام الهروى

هذا تقرير كلامه وفي جعله هذه الدرجة أعلى من التي قبلها نظر لا يخفى وهو نظير جعله الصبر بالله أعلى من الصبر لله

والذي ينبغي : أن تكون الدرجة الأولى أعلى شأنا وأرفع قدرا فإنها مختصة وهذه الدرجة مشتركة فإن الرض بالقضاء يصح من المؤمن والكافر وغايته التسليم لقضاء الله وقدره فأين هذا من الرض به ربا وإلها ومعبودا

كل درجة تكلم بها الهروى كان بن القيم يرد عليه فيها ولا يشرحها

ولكن كان بن القيم سمى كتابه بهذا لأنه كان لا يجرأ أن يرد علي الهروى

وأيضا فالرضى به ربا فرض بل هو من آكد الفروض باتفاق الأمة فمن لم يرض به ربا لم يصح له إسلام ولا عمل ولا حال

الرب هنا : المعبود

وأما الرض بقضائه : فأكثر الناس على أنه مستحب وليس بواجب وقيل : بل هو واجب وهما قولان في مذهب أحمد فالفرق بين الدرجتين فرق ما بين الفرض والندب[٣٥]

---

٣٥ - السابق

الفرق بين الرضا بالله والرضا عن الله والرضا بقضاء الله

الرضا بالله : فرض وهو الرضا بعبوديته أن هو المعبود بحق

والرضا عن الله : وإن كان من أجل الأمور واشرف أنواع العبودية فلم يطالب بها العموم لعجزهم عنه ومشقته عليهم ينبغي أن يعلم أن اختيار الرب تعالي لعباده نوعان :

النوع الأول : اختيار ديني شرعي فوجب علي العبد أن لا يختار غير هذا النوع الذي اختاره سيده قال الله تعالى ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا (٣٦) ﴾ [٣٦]

النوع الثاني :اختيار كوني قدري لا يسخطه الرب كالمصائب التي يبتلي به الله العبد

---

[٣٦] - الأحزاب